... مسرحية سكلا تفالا

وسكلا تفالا كان النائب الشيوعى الوحيد فى البرلمان الإنجليزى، وكان عضوا فى اللجنة التنفيذية «للعصبة المناهضة للإمبريالية» وهى تنظيم عالمى يضم ممثلين عديدين لحركات التحرر الوطنى فى مختلف أنحاء العالم.

ولقد كانت الرجعية المصرية شديدة الحذر من أن يمد الحزب الشيوعى الإنجليزى نطاق اهتماماته إلى مصر فإن ذلك سوف يخلق لها صعوبات جمة، وإن كان الأمر قد حسم تماما مع سلطات الاحتلال بحيث لا يستثنى من حملة الاضطهاد أى يسارى مهما كانت جنسيته.

ويبدو أن الحزب الشيوعى الإنجليزى قد حاول إيجاد علاقة ما بالشيوعيين المصريين، وفزعت الأهرام تحت عنوان «مساعى البلاشفة فى مصر، أيدى الشيوعيين الإنجليز فيها» فقالت: «لندن فى ٢ يوليو- خطب المستر كل فى المؤتمر الشيوعى بمدينة جلاسجو فقال إنهم قطعوا خطوات جدية جدا فى سبيل إيجاد روابط بينهم وبين الأحزاب الثورية فى مختلف أنحاء الإمبراطورية وهم الآن على اتصال مع أحزاب أخرى فى فلسطين وسوريا ومصر.. »[1].

لكن الخطر الأكبر كان يأتى فى نظر الرجعية المصرية وسلطات الاحتلال من «عصبة النضال ضد الإمبريالية».

وقد ركزت أجهزة عديدة للمخابرات جهودها لتقصى نشاط هذه المنظمة الدولية وعلاقاتها بالقوى الوطنية المختلفة.

وثمة وثيقة حصلت عليها المخابرات البريطانية من المخابرات الهولندية حول نشاط هذه العصبة وتقول هذه الوثيقة[٢]: «فى فبراير ١٩٢٨ تلقت المخابرات الهولندية المعلومات التالية عن منظمة عصبة النضال ضد الإمبريالية: والعصبة تضم الشيوعى الإنجليزى سكلا تفالا والهندى الثورى جواهر لال نهرو (الذى يتردد كثيرا على برلين) والصينى لوشان سن ومندوب جنوب أفريقيا كولركين..

وقد حضر نهرو المؤتمر الأول للعصبة الذى عقد فى بروكسل فى فبراير ١٩٢٧ كممثل لحزب المؤتمر الهندى وأصبح عضوا فى اللجنة التنفيذية للعصبة. وهو ابن باندیت لوتى لال نهرو الذى حضر المؤتمر الثانى للعصبة فى برلين فى ديسمبر ١٩٢٧ ولكن نهرو الأب يبدو أكثر اعتدالا من ابنه.

ومن المفيد أن نشير إلى أن هذا السياسى العجوز والذى يبدو أنه قد زار موسكو مؤخرا قد قام أيضا بزيارة القاهرة وخلال زيارته هذه اتصل عدة مرات بجمعية الشباب المحمدى التى تأسست فى مطلع هذا العام. وهى جمعية دينية ذات أهداف سياسية ويرأسها الدكتور عبد الحميد بك «عبد الحميد سعيد» عضو البرلمان وهو أحد القادة المتطرفين للحزب الوطنى وقد وعده نهرو بنشر الدعوى لتأسيس فروع لهذه الجمعية فى الهند».

ولسوف تشهد صفحات قادمة مدى الذعر الذى أصاب الدوائر الإمبريالية والرجعية المحلية من مثل هذه العلاقات.

لقد أحسوا بالحركة الوطنية المصرية وهى توشك تتفتح على حركة اليسار العالمى كان لا بد من ضربة سريعة وحاسمة..

ذلك أن العناصر اليمينية فى الحركة الوطنية المصرية كانت تكره اليسار إلى حد أنها كانت ترفض ما يأتى عن طريقه حتى ولو كان تأييدا للأمانى الوطنية المصرية والنضال الوطنى المصرى ضد الاستعمار..

وهكذا بدأت مسرحية سكلا تفالا.. بهدف إدانة أى اتصال باليسار العالمى حتى ولو كان هذا الاتصال فى إطار النضال العام ضد الاستعمار..

وسكلا تفالا نائب شيوعى فى مجلس العموم البريطانى. وهو عضو فى اللجنة التنفيذية لعصبة النضال ضد الإمبريالية، وتكتسب عضويته هذه وضعا خاصا نظرا لكونه من أصل هندى وقد طلب سكلا تفالا تأشيرة دخول لمصر من المفوضية الملكية المصرية لندن لكنها أبلغته أن وزارة الداخلية ترفض ذلك.

وأقام سكلا تفالا الدنيا وأقعدها. فلعلها المرة الأولى التى ترفض فيها حكومة بلد شبه مستعمر منح تأشيرة دخول لعضو فى برلمان الدولة الاستعمارية.

ووجه سكالا تفالا نداء إلى الرأى العام المصرى.. ورسالة إلى عدلى يكن رئيس وزراء مصر يحتج فيها على منعه من الدخول إلى مصر. وعن طريق الفرع المصرى لعصبة النضال ضد الإمبريالية وصلت نسخ عديدة من هذه الرسالة إلى كثير من الشخصيات الوطنية المصرية وأعضاء البرلمان الذين أثارهم أن ترفض الحكومة المصرية منح تأشيرة الدخول للنائب الوحيد فى البرلمان البريطانى الذى يدافع عن حق مصر والذى وقف فى البرلمان – وحيدا– معترضا على طرد القوات المصرية من السودان وغرامة النصف مليون جنيه فى أعقاب مقتل السردار.

ولقد كانت خطابات سكلا تفالا إلى أصدقائه المصريين وإلى الرأى العام المصرى عنيفة غاية العنف وكان يصيح قائلا: «تكلموا، تكلموا يا أبناء مصر، تكلموا، تكلموا بأعلى صوتكم، وبأصرح وبأسرع ما يمكن، حتى أستطيع أن أستمع إلى صوتكم وإلى إرادتكم من هنا من بعيد».

وكان يوجه فى رسالته أسئلة مريرة، إجاباتها أكثر مرارة «هل صحيح أنكم تمنعون رجلا فقيرا مثلى من دخول بلادكم لمجرد أننى أناضل من أجل الحرية الكاملة لشعب بلادكم ومن أجل تخلصه من أى تحكم أو استغلال أجنبى أيا كانت جنسية القائمين به؟ وهل من حق أصدقائى الهنود أن يفترضوا أن المصريين يضطهدوننى وأنا العضو الشرقى الوحيد فى البرلمان البريطانى بينما لا يمنعون أى عضو آخر فى البرلمان، هؤلاء الأعضاء الذين أيدوا فرض غرامة النصف مليون جنيه إسترلينى على مصر والذين طردوكم من أراضى إقليمكم السودان؟ أم ماذا يا شعب مصر؟ هل برلمانكم مجرد ألعوبة؟ وهل كان

وزراؤكم مجرد منفذين مطيعين لتعليمات بريطانية بمنعى من دخول مصر؟ أم أن استقلالكم وبرلمانكم محدودا الأثر»[٣].

وأحدثت هذه الأسئلة المريرة أثرها وانتقلت القضية إلى الصحف ومنها إلى البرلمان..

وفى البرلمان جرى نقاش حاد أثاره سؤال موجه إلى وزير الخارجية من الدكتور حامد محمود.. ثم استجواب موجه إلى رئيس الوزراء من النائب حسن سيد أحمد نافع[٤].

والحقيقة أن النصوص الكاملة لمضبطتى مجلس النواب حول مناقشة موضوع سكلا تفالا تقدمان لنا صورة مسرحية بالغة الدلالة.

فلقد حاول النواب الرجعيون أن يقلبوا المائدة على سكلا تفالا.. ففسّروا عبارة وردت فى خطاباته إلى أصدقائه المصريين جاء فيها أن البرلمان البريطانى لا يفتأ يدعى ظلما واقتدارا حق الرقابة العليا على المرافق المصرية ويحتفظ بممثلين عسكريين وملكيين فى الأراضى المصرية والسودانية.

«فبصفتى عضوا فى هذا البرلمان أجد من واجبى إزاء الشعبين البريطانى والمصرى أن أتى إلى مصر لدرس مسائل معينة فى مواقعها..».

ويقف محمد صالح حرب مفسرا هذه العبارة على هواه متهما سكلا تفالا بأنه يعتبر مصر جزءا من الإمبراطورية البريطانية ويصيح بأعلى صوته: «إن هذا التصريح قد أفقد المستر سكلا تفالا كل عطف فى هذه البلاد لأن مصر لم تكن يوما ما ولن تكون تابعة للإمبراطورية البريطانية» ويعلو صوته أكثر فأكثر: «إن القلوب التى امتلأت بحب الحرية لا تزال فى صدورنا، كما أن أشباح النفوس التى سالت دماؤها على حد السيوف وأسنة الرماح فى سبيل الحصول على استقلال البلاد لا تزال ماثلة أمام أعيننا (تصفيق).

إننا يا حضرات النواب الكرام نغار على استقلالنا أن يمس حتى ولو بالكلام ولهذا نحن لا يمكننا مطلقا أن نقبل فى ضيافتنا رجلا يريد أن يطأ أرضنا باعتبار أنها جزء من الإمبراطورية البريطانية»[٥].

ويتصدى محمد حافظ رمضان بالرد كاشفا الحقيقة قارنا على النواب فقرات من الخطاب الشخصى الذى وصله من سكلا تفالا مؤكدا أن منعه من دخول مصر هو مساس بالاستقلال وليس دفاعا عنه..

ثم يكشف حافظ رمضان كل أوراق اللعبة موضحا الأسباب الحقيقية لمنع سكالا تفالا من دخول مصر فيقول: «فى الواقع يا حضرات الزملاء إن هذا النائب لم يك نائبا بريطانيا فقط بل الحقيقة أنه عضو فى جمعية أنشئت فى العالم الغربى وستجتمع فى يوم ١٠ فبراير القادم وهى ضد كل استعمار غربى، جمعية أعضاؤها فى جميع البلدان المحايدة كالسويد والنرويج والدانمرك وغيرها ونظيرتها أن جمعية الأمم الحاضرة إنما هى جمعية حكومات تريد أن تقتسم بلاد الضعفاء. وإذا أريد أن توجد جمعية أمم حقيقية وجب أن يكون فيها نواب من الأمم أنفسهم لا من حكوماتها فقط. وعلى هذه القاعدة يريدون أن تكون أعمال جمعية الأمم وتصريحاتها موجهة ضد كل استعمار وللأخذ بناصر الأمم المستضعفة.

أيعقل أن يحضر إلى مصر رجل هذا شأنه ليدافع عن الاستعمار البريطانى مع أنه حوكم فى بلاده من أجل آرائه ضد الاستعمار»[٦].

وهكذا تنكشف اللعبة ويتضح السبب الحقيقى لمنع سكلا تفالا، فالرجعيون المصريون لا يريدون أى علاقة بعصبة النضال ضد الإمبريالية.. وهم لا يريدون أى تلامس مع اليسار حتى ولو تضمن تأييدا من هذا اليسار لحقوق مصر القومية..

ويمضى النقاش عنيفا ثم يوجه عبد الرحمن عزام سؤالا يقول: «أريد أن أستعلم أولا من دولة رئيس مجلس الوزراء هل حصل احتجاج من الحكومة البريطانية أو من أحد ممثليها على منع هذا النائب؟» ويبتلع رئيس الوزراء الطعم ويجيب: «لم يحصل احتجاج».

وهنا يعلق عبد الرحمن عزام قائلا: «أردت بهذا السؤال أن ألفت نظر حضراتكم إلى أن الحملة التى أشهرت على المستر سكلا تفالا بأنه رجل يؤيد الاستعمار البريطانى ويدعو إليه فى مصر إنما هى حملة غير حقيقية أصلا ولا تستند إلى شىء من الصواب. والدليل على ذلك أنه لو منع نائب آخر لا يعتنق مبادئ المستر سكلا تفالا المتطرفة لاحتجت الحكومة الإنجليزية على هذا التصرف. وإنى أرى هذا كافيا فى أن يزيل من أذهان حضراتكم آثار الحملة التى أريد بها أن تنزع من قلوبكم العطف على ذلك النائب المحترم».

وهنا يكشف النواب الرجعيون النقاب عن وجوههم ليتحدثوا بصراحة.

«عبد السلام عبد الغفار بك: إننى أؤيد الحكومة بكل قوة فى الإجراءات التى اتخذتها ضد المستر سكلا تفالا.. وعلى كل حال الشيوعية مكروهة وأنا أحبذ تصرف الحكومة فى هذا الحادث وأرجو أن نؤيدها وأن تطلبوا منها الاستمرار على اتباع هذه الخطة».

.. ويقول الدكتور محجوب ثابت: «أرى ونحن فى وقت يراد فيه الصيد فى الماء العكر بكل الوسائل أن من واجبنا أن لا نمكن شيوعيا كائنا من كان من الحضور إلى هذه البلاد».

وأخيرا يعلن رئيس المجلس قفل باب المناقشة ويقرأ اقتراحين، أحدهما من حضرة عبد الرحمن عزام أفندى وحفنى محمود بك ونصه: « نقترح أن تعيد الحكومة النظر فى مسألة المستر سكلا تفالا وأن تسمح له بالدخول فى القطر المصرى إذا تعهد بألا يتكلم وبألا ينشر الدعوة الشيوعية فى مصر». ويمضى رئيس المجلس معطيا لنفسه وحده حق رفض هذا الاقتراح فيقول: «يخيل إلى أن هذا الاقتراح غير مناسب فى صيغته لطبيعة الاستجواب.. وأظن أن الأقرب إلى ذلك هو الاقتراح الثانى المقدم من حضرة محمد صبرى أبو علم أفندى وهذا نصه:

«المجلس بعد سماع بيانات حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء يكتفى بإثباتها وينتقل إلى جدول الأعمال»..

وهكذا أسدل الستار على موضوع سكلا تفالا..

لكنه يبقى أمامنا أن نعرف أن البرلمان الذى ناقش هذا الموضوع كانت أغلبيته لحزب الوفد.. وأن رئيس الجلسة كان سعد زغلول ثم مصطفى النحاس..

ولعل هذا يلقى ضوءا على علاقة الوفد باليسار فى هذه الأيام. فقد اختطت قيادة الوفد فى ذلك الحين لنفسها خطا يمينيا يبتعد بها عن أى تلامس مع اليسار حتى ولو كان الهدف منه.. نضال مشترك ضد الاستعمار.

وهكذا ولد تحالف اليسار مع القوى الوطنية الأخرى ضعيفا غاية الضعف بعد أن فقد مباركة قيادة الوفد وتأييدها.

الهوامش

(١) الأهرام- ٣ يونيو ١٩٢٥.

(٢) f. 371/13417= file: 152/29

وهى محفوظة بالمتحف البريطانى ومؤرخة فى ٤ مايو ١٩٢٨ ومثبت على صفحتها الأولى أنها ترجمة لتقرير سرى باللغة الألمانية.

(٣) راجع النص الكامل للنداء فى الملاحق. وهى إحدى الوثائق المحفوظة بالمتحف البريطانى وتتضمن صفحتها الأولى البيانات التالية «وثائق وزارة الخارجية البريطانية- مكتب السجلات العامة- ملف رقم ٣٧١/ ١٢٣٥٤- رقم الوثيقة ١٨٨٠ لا يجوز تداولها ولا تصويرها إلا بإذن خاص».

(٤) أحمد شفيق باشا. حوليات مصر السياسية. الحولية الرابعة عام ١٩٢٧- الطبعة الأولى ١٩٢٨ مطبعة حوليات مصر السياسية. ص١١.

(٥) مضبطة الجلسة الثانية والعشرين لمجلس النواب يوم ٢٥ يناير ١٩٢٧ النص الرسمى- ص٣١ وما بعدها - راجع النص الكامل بالملاحق.

(٦) المرجع السابق.